

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في كتاب "من مقومات النفسية الإسلامية"

الحلقة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ عَلَى إِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً
لِلْعَالَمِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَاجْعَلْنَا مَعَهُم، وَاحْشِرْنَا فِي زُمْرَتِهِمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ.

أيها المسلمون:

مستمعي الكرام مستمعي إذاعة المكتب الإعلامي لحزب التحرير:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: سنكون معكم على مدار حلقاتٍ عدة، بقدر ما يفتح
الله به علينا، نتأمل وإياكم فيها كتاب: "من مقومات النفسية الإسلامية". ومن أجل توضيح المقصود
بمصطلح "الشخصية الإسلامية" نقول وبالله التوفيق:

الشخصية في كل إنسان تتألف من عقليته ونفسيته، ولا دخل لشكله ولا جسمه ولا هندامه
ولا غير ذلك، فكلها قشور، ومن السطحية أن يظن أحد أنها عامل من عوامل الشخصية أو تؤثر في
الشخصية.

لقد شاع بين الناس كلما رأوا شخصاً يعنى بمظهره وشكله وجسمه وهندامه، أن يطلقوا عليه
عبارة: "إنه ذو شخصية"، وكثيراً ما يركز أصحاب الأعمال، والمديرون للشركات على هذه النواحي أثناء
مقابلاتهم الشخصية لدى اختيارهم وانتقائهم موظفيهم، فيهتمون بالقشور والأمور السطحية، ويغفلون
الجانب الأهم في الشخصية ألا وهو العقلية والنفسية، مما يؤدي بالتالي إلى سوء الاختيار، والإخفاق في
الأعمال.

والصواب ما قلناه في افتتاحية هذه الحلقة، وهو أن الشخصية في كل إنسان تتألف من عقليته
ونفسيته، ولا دخل لشكله ولا جسمه ولا هندامه ولا غير ذلك، فكلها قشور، ومن السطحية أن يظن
أحد أنها عامل من عوامل الشخصية أو تؤثر في الشخصية. ويؤكد هذا الرأي الذي ذهبنا إليه شواهد
كثيرة منها قول الشاعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدّم

وتؤكدده مقولة: "إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه" فحينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفدت الوفود من كل بلد لبيان حاجاتها وللتهنئة، فوفد عليه الحجازيون، فتقدم غلام هاشمي للكلام، وكان حديث السن، فقال عمر لينطق من هو أسن منك فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبداً لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك، فقال عمر صدقت، قل ما بدا لك، فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة، وقد أتيناك لمن الله الذي من علينا بك، ولم يقدمنا إليك إلا رغبة ورهبة، أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا، وأما الرهبة فقد أمننا جورك بعدلك، فقال عمر: عظمي يا غلام، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الأقدام فهووا في النار، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل قدمك، فتلحق بالقوم، فلا جعلك الله منهم، وألحقك بصالحى هذه الأمة، ثم سكت. فقال عمر: كم عمر الغلام، فقيل له: ابن إحدى عشرة سنة، ثم سأل عنه فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه، فأثنى عليه خيراً، ودعا له، وتمثل قائلاً:

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهلٌ

فإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذ التفت عليه المحافلُ

فما سوى العقلية والنفسية قشور، تؤكد ذلك أيضاً مقولة: "آن لأبي حنيفة أن يمد رجله". فقد كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله مجتمعاً مع تلاميذه في المسجد، وكان منهمكاً في شرح مسألة فقهية، وفي تلك الأثناء دخل إلى المسجد رجلٌ حسن المنظر، فاخر الثياب، يبدو في ظاهره أنه من أهل اللغة والعلم والأدب.

عندما رأى أبو حنيفة هيئة ذلك الرجل وهندامه ظن أنه من أهل العلم والفصاحة، والأدب والبلاغة، والحنكة والفراسة، وعلى الفور احترم أبو حنيفة وجوده، ثم وازن جلسته، ورفع عمامته، وكف قدميه، وقد كان رحمه الله - كما روي عنه - يعاني من ألم في ركبته، لكنه في تلك الجلسة لم يمد رجله، فتحمل الألم وأبقى رجله مثنية احتراماً لهذا الرجل. وقطع شرحه عن تلاميذه، ثم استقبل ذلك الرجل

كما يُستقبل العلماء والأدباء والأمراء؛ لأن أهل العلم لهم شرفٌ عالٍ وقدراً وافٍ، يتحقق فيهم قول الشاعر:

العلمُ يَبني بُيوتاً لا عِمَادَ لها والجهلُ يَهْدِيهِمُ بَيْتَ العِزِّ والكَرَمِ

كلُّ من في المسجد شاهد هيئة ذلك الرجل فعظُم أمره في نفوسهم نظراً لما فيه من جمال الظاهر والحسن الباهر. جلسَ الرجلُ في بداية الأمر، ولم يَنبَسِ بينتِ شَفَةِ، فتحقق في حاله المثل القائل: "الرَّجالُ أسوار ما لم تتكلم". ومعنى هذا المثل أن الإنسان كالسُّور لا يُعرَف ما وراءه حتى يَنطِق، فإن نطق انكشف ما كان السور يخفيه، فأسوارٌ تخفي وراءها حدائق غناء مليئة بالزهور البيضاء، وأسوار تخفي مُدناً جميلة ذات أنهار كثيرة، وأخرى أخفت وراءها من سقط المتاع ما يجلب الكآبة للرَّائي.

بعد برهة من الزمن سأل ذلك الرجلُ أبا حنيفة قائلاً: يا أبا حنيفة إني سائلك فأجِبني إن كنت عالماً يُتَّكل عليه في الفتوى! في بداية الأمر شعر أبو حنيفة أنه مسئول من قِبَلِ عالمٍ رباني لا يشق له غبار فقال له: تفضل. الرجل: متى يفطر الصائم؟ بعد سؤال الرجل لأبي حنيفة شعر بأنه صاحب غرض عميق من هذا السؤال فسأله سهل ويسير، من الممكن أن يجيب عليه الغلمان، فظن أبو حنيفة أن الرجل يريد أن يختبر صبره على تفاهة أسئلة البسطاء، فزاد عِظَمَ أمر ذلك الرجل في نفس أبي حنيفة.

ردَّ أبو حنيفة قائلاً: إذا غَرَبَتِ الشمسُ أفطر الصائمُ. فقال الرجل بعد إجابة أبي حنيفة، ووجهه ينطق بالجدِّ والحزم والعجلة، وكأنه وجد على أبي حنيفة ما يلومه عليه. الرجل: وإذا لم تغرب شمس ذلك اليوم يا أبا حنيفة؟ وبعد سؤاله الثاني بان وظهر لأبي حنيفة ما يخفيه سور ذلك الرجل، فسوره مُتَّقِنُ البناء، مُحَسِّنُ الطَّلَاءِ، مُزَرَّكَشُ البُرُوزِ، مُثَبِّثُ العُرُوزِ. ولكنه مع الأسف سُورٌ مَقْبَرَةٌ أيُّ مَقْبَرَةٍ! ليست مقبرة آدميين، بل مقبرة الجهل. ابتسم أبو حنيفة بوجه ذلك الرجل ابتساماً عريضةً، ثم قال مقولته المشهورة التي كُتِبَتْ في طياتِ مُجلِّداتِ السِّيَرِ بماءِ الذهبِ فَصارت مثلاً يورثه السلفُ للخلفِ وهي: "آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه" وهذا المثل ينطبق على كل من هو عازم على تقديم شيء، فهو عاقد النية على البذل والجهد، ولكنه يفاجأ بمستوى ما هو أمامه أو من هو أمامه. حينها يرى أنه لا مكان لجهد وعمله، وأن الراحة أفضل وأولى، وأن عليه أن يمد رجليه كما مدها أبو حنيفة؛ لذا على كل من يريد العمل أن يتأكد من توافر البيئة السليمة، حتى لا يضطر في لحظة معينة إلى أن يقول كما قال الإمام أبو حنيفة.

وعليه فكل ما سوى العقلية والنفسية بالنسبة للشخصية قشور، تؤكد ذلك أيضاً مقولة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد قال: "تكلّموا تُعرّفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه". وتؤكد ذلك أيضاً مقولة عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهو يرى أنّ صاحب الشخصية الإسلامية حتى يُوصف بهذا الوصف لا بدّ أن يكون ذا نفع وفائدة لنفسه، ولأمة الإسلام، ولدين الإسلام، ولا يُحكّم عليه من خلال مظهره فقط؛ لذلك قال: "إني لأرى الرجلَ فيُعجّبني، فأقول: أله مهنة؟ فإن قيل: "لا" سقطَ من عيني!

مستمعي الكرام: مستمعي إذاعة المكتب الإعلامي لحزب التحرير:

نكتفي بهذا القدر في هذه الحلقة، على أن نُكمل تأملاتنا في الحلقات القادمة إن شاء الله تعالى، فإلى ذلك الحين وإلى أن نلتقاكم، نترحمكم في عناية الله وحفظه وأمنه. نشكركم على حسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.